Route Educational and Social Science Journal ISSN: 2148-5518

Volume 5 (9), July 2018

Received/Geliş	Article History Accepted/ Kabul	Available Online / Yayınlanma
13 /6 /2018	26 /6/2018	1 /7/2018

الوظيفة الحِجاجيّة للاستعارة في الخطاب القرآنيّ / السُّور المكيّة أنموذجاً

د. أحمد غالب الخرشة

قسم اللغة العربيَّة وآدابها – كلية الآداب والعلوم

جامعة العلوم الإسلاميَّة العالميَّة / الأردن

الملخّص

يهدف هذا البحث إلى دراسة الوظيفة الحِجاجيّة للاستعارة في الخطاب القرآنيّ متخذاً من السُّور المكيّة أنموذجاً له، وتأتي أهميته من كونه يسعى لبيان الدّور الكبير الذي تضطلعُ به الاستعارة في الحِجاج وما توفّره من طاقةٍ تُحدث أثراً كبيراً في المتلقي تساعد على نحوٍ فعّالٍ في إقناعه، وينتظم هذا البحث في مبحثين، الأول(الجانب النظري) وفيه مطلبان، الأول: مفهوم الحجاج، والثاني: دور الاستعارة في الخطاب الحِجاجيّ، أمّا المبحث الثاني(الجانب التّطبيقيّ) فيتناول الوظيفة الحِجاجيّة للاستعارة في الخطاب القرآنيّ في ثلاثة مطالب، الأوّل: دلائل قدرة الله تعالى، والثّاني: عاقبة الأقوام السّابقة، والثّالث: الصّراع بين الحق والباطل، وخلص البحثُ إلى أنَّ الاستعارة في الخطاب القرآنيّ لم تكن مجردَ زخرفٍ لفظيٍّ غايته تحسين الكلام، بل إنّها مكونٌ رئيسٌ من مكوِّنات الحِجاج في هذا الخطاب؛ لأنَّها تؤسّس للتّأثير في المتلقي وإقناعه بالفكرة التي تهدف الآية القرآنيّة إلى بيانها.

The Argumentative function of metaphor in the Qur'anic discourse / the Makki Surahs as a model

Abstract

The purpose of this study is to investigate the argumentative function of the metaphor in the Qur'anic discourse, mainly the Makki Surahs. The study also highlights the role of the metaphor and its impact on the recipients. The study tackles this issue through a theoretical aspect that underlines the meaning of argument and the role of the metaphor in the argumentative discourse.

On the other hand, the study introduces a practical aspect through three areas. The first is the evidence of the ability of God, the second aspect talks about the past nations, and the third deals with the conflict between the right and wrong. The study concluded that the metaphor is one of the most important functions due to its key effect on the recipient.

الوظيفة الحِجاجيّة للاستعارة في الخطاب القرآنيّ / السُّور المكيّة أنموذجاً

د. أحمد غالب الخرشة

المقدِّمة

تعدُّ نظرية الحِجاج من أبرز النّظريات التي حظيت باهتمام الباحثين في الدرس النّقديّ الحديث، نظراً لما تحمله من جِدَّةٍ في الموضوع، وتاريخٍ راسخٍ في البلاغة العربيّة، ولهذا فإنَّ محاولة دراسة هذه النّظريَّة في الخطاب القرآنيّ أمرٌ يجذب الباحث إليه، فالقرآن الكريم رسالةٌ موجَّهةٌ للبشرية جمعاء جاءت لترسمَ للفرد علاقته مع الخالق – عزّ وجلّ – وغيره من بني جنسه وكلّ ما يحيط به في هذه الحياة، معتمدةً في ذلك على خطابٍ يحمل من وجوه الإعجاز البيانيّ ما يدفع الباحث إلى سبر أغواره.

ومن هنا ارتأى الباحث أن يتناول الوظيفة الحِجاجيّة للاستعارة في الخطاب القرآنيّ مُتخذاً من السُّور المكيّة أنموذجاً للدّراسة؛ لأنَّها تعالج موضوعاتٍ تتصل بالعقيدة ووحدانية الخالق عزَّ وجلَّ، ممّا يستدعي توظيف أساليب حِجاجيّة تعتمد إعمال العقل والتّفكير والبرهان والحُجَّة، ومما تنبغي الإشارة إليه أنَّ الباحث لم يقف على دراسةٍ مستقلةٍ تناولت هذا الموضوع على الرّغم من عناية الباحثين في العصر الحديث في دراسة نظرية الحِجاج في القرآن الكريم، فقد تنوّعت الدّراسات في هذا الجانب فمنها ما تناول الحِجاج في سورةٍ واحدةٍ من سور القرآن الكريم، ومنها ما تناوله في القرآن بأكمله كما هو الحال في دراسة عبدالله صولة(الحِجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبيَّة)، غير أنَّ هذا البحث لا يلتقي مع أيّ دراسةٍ من هذه الدّراسات؛ لأنّه يهدف إلى دراسة آليةٍ واحدةٍ من آليات الحِجاج في الخطاب القرآنيّ هي الاستعارة.

وقد جاء هذا البحث في مبحثين، الأول(النظري) وفيه مطلبان، الأول: مفهوم الحجاج، والثاني: دور الاستعارة في الخطاب الحِجاجيّ، أمّا المبحث الثاني(التّطبيقيّ) فيتناول الوظيفة الحِجاجيّة للاستعارة في الخطاب القرآنيّ في ثلاثة مطالب، الأوّل: دلائل قدرة الله تعالى، والثّاني: عاقبة الأقوام السّابقة، والثّالث: الصّراع بين الحق والباطل، وهنا تجدر الإشارة إلى أنَّ الباحثَ لم يأتِ على كلِّ ما ورد في السُّور المكيّة من استعارات؛ لأنَّ هذا الأمر ليس من أهداف هذا البحث، وإنما انصبّ الاهتمام على جملةٍ من النّماذج المختارة التي يعتقد الباحث أنّها قادرةٌ على الكشف عن الوظيفة الحِجاجيّة التي تنهض بها الاستعارة في القرآن الكريم.

وبعد، فإنّني لا أدّعي في هذا البحث الكمال أو أنَّني تناولت موضوعات الاستعارة في الخطاب القرآنيّ كافة، وحسبي محاولة النّظر في هذا الموضوع ولفت الانتباه إليه ليكون لبنةً أساسيّةً في دراسة الوظيفة الحِجاجيّة للفنون البلاغيّة في الخطاب القرآنيّ بصورةٍ كاملةٍ.

المبحث الأوّل: الجانب النّظريّ

أوّلاً: مفهوم الحِجاج:

الحِجاجُ في أصله من (حَجَجَ)، والحَجُّ بمعنى القصد، نقول: حَجَّ إلينا فلانٌ أي قَدِمَ، والحُجَّةُ: البرهان، وجمعُها حُجَجٌ وحِجاج، وحاجَّه مُحَاجَّةً وحِجَاجًا: نازعه الحُجَّة، وسُمّيت حُجَّة لأنَّها تُحَتَجُّ أي تُقتَصد [1].

أما بالمعنى الاصطلاحي فإنّه ينظر إلى الحِجاج على" أنَّه فعاليّة تداوليّة جدليّة، فهو تداوليٌّ لأنَّ طابعه الفكريّ مقاميّ واجتماعيّ، إذ يأخذ بعين الاعتبار مقتضيات الحال من معارف مشتركة ومطالب إخباريّة وتوجّهات ظرفيّة، ويهدف إلى الاشتراك جماعيًّا في إنشاء معرفةٍ عمليةٍ

(1) انظر، ابن منظور ، جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي الإفريقي: لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط3، 1414هـ، مادة (حَجَجَ).

إنشاءً موجَّهاً بقدر الحاجة، وهو أيضًا جدليّ؛ لأنَّ هدفه إقناعيّ قائم على التزام صورٍ استدلاليّةٍ أوسع وأغنى من البنيات البرهانيّة الضّيقة"[2].

يرجع مفهوم الحِجاج إلى العصور القديمة، منذ أن هيمن الفلاسفة من أمثال أفلاطون وأرسطو في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد على البلاغة، وكانوا أول من تنبَّه إلى قوة الكلام عن طريق الاهتمام بقدرة اللغة الإقناعيَّة وجماليتها، وكان الأساس في نظرتهم للغة هو الإنسان الذي نظروا إليه ككلٍّ يحتويه القول[3]، وذلك في كتاب الخطابة الذي اهتم بالإقناع وأدواته.

وفي العصر الحديث كانت شرارة البدء لشاييم بيرلمان Chaim Perlman، ولوسي أولبرشتسي تيتيكا Lucie Olbrechts Tyteca- من المدرسة البلجيكيَّة- اللذين أبديا اهتماماً في العودة للاهتمام النّظريّ بالحِجاج في كتاب: (رسالة في الحِجاج (البلاغة الجديدة)[4]، وذلك في محاولةٍ للتخلّص من صرامة القواعد التخاطبيّة في البلاغة الغربية القديمة عند أرسطو وأفلاطون ولاسيما في كتاب (الخطابة) الذي حوى هذه المبادئ والقواعد.

وسرعان ما ذاع مصطلح البلاغة الجديدة في محاولةٍ تجديديةٍ للبلاغة القديمة بثوبٍ جديدٍ أيضاً هو الحِجاج، فكان من "أهداف البلاغة الجديدة دراسة وسائل التأثير في المخاطَبين بمختلف مستوياتهم وبعيدًا عن المغالطات والتحريض، أي التأثير العلمي القائم على أسس عقلية"[5] خالصة.

يقوم الحِجاج من وجهة نظر بيرلمان وتيتيكا على ركيزتين: الأولى: إنَّ الحِجاج صورةٌ فنيّةٌ خطابيّةٌ[6]، وعليه فإنهما يركزان على تجليات الخطاب بحسب مقامات التّوظيف وسياقاته، والثانية: إنَّ الحِجاج هو آلية الإقناع الرَّئيسة[7]، في محاولةٍ جادةٍ للتخلّص من الفروض المنطقيّة الصّارمة التي سادت من قبل، وإعادة بلاغة الإقناع إلى دائرة الاعتبار المعرفي[8].

ثم جاء ديكرو O.Ducrot وأنسكومبر J.C.Anscomber فأطلقا مصطلح الحِجاج على كلّ نشاطٍ لغويٍّ أو بعبارةٍ أدق على كلّ حوارٍ لغويٍّ، فالحِجاج في نظرهما "لم يعد نشاطًا لسانيًّا من بين أنشطةٍ أخرى، ولكنه أساس المعنى نفسه وأساس تأويله في الخطاب"[9].

وتلتقي البلاغة مع الحِجاج في أنّها تقنيةٌ لغويّةٌ تنزع إلى الجانب العقليّ كما تنزع إلى الجانب الشّعوريّ، وكانت هذه الفكرة حاضرةً في عقول البلاغيين، فقد ورد في كتاب (المثل السّائر) في باب الاستدراج في الغرض من ذكر هذا الباب "الغرض ذكر ما تضمّنه من النّكت الدّقيقة في استدراج الخصم إلى الإذعان والتّسليم، وإذا حُقّق النّظر فيه علم أنَّ مدار البلاغة كلِّها عليه؛ لأنّه لا انتفاع بإيراد الألفاظ المليحة الرائقة، ولا المعاني اللطيفة الدقيقة دون أن تكون مُستجلبة لبلوغ غرض المخاطَب بها، والكلام في مثل هذا ينبغي أن يكون قصيراً في خِلابه،

(2) عبد الرحمن، طه: في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط2، 2000م، ص65.

(3) بروتون وجوتييه، فيليب وجيل: تاريخ نظريات الحِجاج، ترجمة: محمد صالح الغامدي، مركز النشر العلمي، جامعة الملك عبد العزيز، المملكة العربية السعودية،(د.ط)،2011م، ص23.

(4) انظر، المصدر نفسه، ص41.

(5) الطلبة، محمد سالم الأمين: الحجاج في البلاغة المعاصرة، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط1، 2009م، ص106.

(6) انظر، بروتون وجوتييه: تاريخ نظريات الحِجاج، ص46.

(7) انظر، الشهري، عبد الهادي بن ظافر: استراتيجيات الخطاب (مقاربة لغوية تداولية)، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط1، 2004م، ص454.

(8) انظر، عادل، عبد اللطيف: بلاغة الإقناع في المناظرة، دار الأمان، الرباط/ منشورات ضفاف- بيروت/ منشورات الاختلاف- الجزائر،ط1، 2013م، ص83.

(9) الحباشة، صابر: لسانيات الخطاب (الأسلوب والتلفظ والتداولية)، دار الحوار للنشر، اللاذقية/ سوريا، ط1، 2010م، ص246.

لا قصيراً في خطابه، فإذا لم يتصرّف الكاتب في استدراج الخصم إلى إلقاء يده، وإلا فليس بكاتب، ولا شبيه له إلا صاحب الجدل، فكما أنَّ ذاك يتصرّف في المغالطات القياسيّة، فكذلك هذا يتصرف في المغالطات الخطابيّة"[10]، وقد عنى بالمغالطات الخطابيّة الأساليب البيانيّة للغة التي تبرز قدرتها على آداء المعنى الواحد بطرقٍ متعدّدةٍ لكلٍّ استعماله ووظيفته.

وقال حازم القرطاجني: " لَمَّا كان علم البلاغة مُشتملًا على صناعتي الشعر والخطابة، وكان الشعر والخطابة يشتركان في مادة المعاني ويفترقان بصورتي التخييل والإقناع،.... كان القصد في التخييل والإقناع حمل النفوس على فعل شيء أو اعتقاده أو التخلّي عن فعله واعتقاده"[11]، وعليه فإنَّ الخطاب التداوليّ الإقناعيّ أحد وجهي البلاغة، ووجهها الثاني التخييل، فالبلاغة تضمُّ في جانبٍ منها كلَّ الخطابات التخييلية من شعرٍ وسردٍ وغيرهما، كما تضمُّ في جانبها الثاني كلَّ مكوّنات الخطاب التداوليّ، فبلاغة الخطاب الإقناعيّ تقابل بلاغة الخطاب التخييليّ وتتداخل معها[12]، إذ إنَّ " الإقناع يكون بمخاطبة الخيال والعاطفة" [13] بها، والمتأمّل في شعر النقائض وفي شعر الفِرَق الإسلاميّة– ولا نبالغ إذا قلنا في كثيرٍ من الأشعار– يخلص إلى أنّها عبارة عن نصوصٍ حِجاجيّةٍ بأشكال وغايات مختلفة إذ " يتمثّل الحِجاج في إنجاز متواليات من الأقوال بعضها هو بمنزلة الحجج اللغويّة، وبعضها الآخر هو بمثابة النتائج التي تستنتج منها"[14].

يقول الجاحظ: "وقال بعض أهل الهند: جماع البلاغة البصر بالحجة، والمعرفة بمواضع الفرصة، ثم قال: ومن البصر بالحجة، والمعرفة بمواضع الفرصة، أن تدع الإفصاح بها إلى الكناية عنها، إذا كان الإفصاح أوعر طريقة، وربما كان الإضراب عنها صفحاً أبلغ في الدَرَك، وأحقَّ بالظفر" [15]، فإذا كان الحِجاج يقوم بالمقام الأول على البراعة اللغويّة فإنَّه لا يستغني عن توظيف العناصر البلاغيّة من تكرارٍ، واستعارةٍ، ومجازٍ، وتشبيهٍ، وغيرها، الأمر الذي حدا (أوليفيي روبول) لتأليف كتابٍ بعنوان:(هل يمكن أن يوجد حجاج غير بلاغيّ؟) يعزّز فيه فكرةً مهمةً تتمثّل بأنَّ واقع الاستعمال اللغويّ لا يغفل دور الحِجاج في استثمار كلِّ ما يختزله الكلام من طاقاتٍ دلاليَّة.

ويرى (مايير Meyer) أنَّ للصورة البلاغية دورًا في جذب السّامع وتحريك خياله ليستوعبَ الأفكار والصّور المقدَّمة إليه[16]؛ لأنّ أساليب البيان تُسهم بطريقتها الخاصة في تقديم المعنى العميق والبعد التأثيري في وجدان المتلقي وعقله، وتكتنز دلالاتٍ غائية مثل التّأكيد أو التّوبيخ أو الاستهزاء وغيرها من الغايات، وتعرضها بحلَّةٍ بيانيّةٍ تقع في وجدان المتلقي بصورةٍ أعمق من الأسلوب المباشر.

ثانياً: دور الاستعارة في الخطاب الحِجاجيّ:

تعدُّ الاستعارة من أكثر الفنون البلاغيّة التي يعتمدها أسلوب الحِجاج، فهي تمثّل أداةً من أدواته وآليةً من آلياته الرّئيسة، وهذا ما أكّده الدّارسون المحدثون حيث ذهب طه عبد الرحمن إلى أنَّ: " القول الاستعاريّ قولٌ حِجاجيّ، وحِجاجيّته من الصنف التفاعليّ نخصُّه باسم

(10) ابن الأثير ، أبو الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، (د.ط)، 1420 هـ، 64/2.

(11) القرطاجني ، أبو الحسن حازم بن محمد بن حازم: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، الدار العربية للكتاب، تونس، ط3، 2008م، ص 18- 19.

(12) انظر، العمري، محمد: بلاغة الخطاب الإقناعي، دار إفريقيا الشرق، المغرب، (د. ط)، 2002م، ص6.

(13) صولة، عبد الله: في نظرية الحجاج (دراسات وتطبيقات)، مسكيلياني للنشر والتوزيع، تونس، ط1، 2011م، ص15.

(14) العزاوي، أبو بكر: اللغة والحجاج، العمدة في الطبع، الدار البيضاء، (د. ط)، 2006م، ص17.

(15) الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر: البيان والتبيين، دار ومكتبة الهلال، بيروت، 1/ 92.

(16) الطلبة، محمد: الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص136.

التحاجّ"[17]، فهو عمليةٌ ذهنيةٌ تفاعليةٌ بين المتكلِّم والمتلقي يفهم كلٌّ منهما مراميها ودلالاتها العميقة، "وهكذا نجد في مقابل الغاية الجماليّة للاستعارة مطمحاً إقناعيًّا للاستعارة الحِجاجيّة"[18].

وهذا يعني أنَّ الاستعارة في حقيقتها ليست زخرفاً لفظيّاً زائداً هدفها تجميل الخطاب وتزيينه، يتمُّ فيها تحوُّل أحد اللفظين للآخر في مستوى السّطح فحسب، لأنَّ هذا الإدراك فيه تسطيحٌ بعيدٌ عن الأدبيّة، وبعيدٌ عن الإيصاليّة معاً، بل هي فنٌّ بلاغيٌّ ملازمٌ لعملياتٍ ذهنيّةٍ ونفسيّةٍ معقَّدة، يتنافر مع مثل هذا التّسطيح الذي يدفع به إلى دائرة المباشرة[19]، فالاستعارة جزءٌ مُلتحِمٌ بمقاصد الخطاب يُسهم في إقناع المتلقي والتّأثير فيه، يقول عبد القاهر الجرجاني: "فقد حصل من هذا الباب أنَّ الاسم المستعار كلّما كان قدمه أثبت في مكانه، كان موضعه من الكلام أضمن به، وأشدّ محاماة به، وأمنع لك من أن تتركه وترجع إلى الظّاهر بالتشبيه، فأمر التّخيّل فيه أقوى، ودعوى المتكلِّم له أظهر وأتم"[20].

ولعلَّ السّؤال الذي يبحث القارئ عن إجابته، هو: لماذا كان التّعبير بالاستعارة أبلغ من التّعبير العادي؟ ولماذا اكتسبت هذه المزية؟ وكيف تؤثّر في المتلقي؟ وكيف يحصل الإقناع من خلالها؟ ونجيب بأنَّ أهمية الاستعارة تكمن فيما توفّره للخطاب من جماليّةٍ قادرةٍ على تحريك وجدان المتلقي، فإذا انضافت هذه الجماليّة إلى حِجج متنوعة وعلاقات حِجاجيّة تربط أجزاء الكلام وتصل بين أقسامه أمكن للمتكلِّم تحقيق غايته من الخطاب من خلال إقناع المتلقي بفكرةٍ ما أو رأي معيّن، ومن ثمة توجيه سلوكه الوجهة التي يريدها لها، ومعنى هذا أنَّ الحِجاج يفيد من جمال الأسلوب الاستعاريّ؛ لأنَّ الجمال يرفد العملية الإقناعيّة وييسر على المتكلِّم ما يرومه من نفاذٍ إلى عوالم المتلقي الفكرية والشعورية[21]،إذ ليست البلاغة كما يصفها أبو هلال العسكري إلا ما به " يعطف القلوب النّافرة ويؤنس القلوب المستوحشة، وتلين به العريكة الأبية المستعصية، ويبلغ به الحاجة وتقام به الحجّة، فتخلّص نفسك من الغيب ويلزم صاحبك الذنب من غير أن تهيجه وتقلقه وتستدعي غضبه وتثير حفيظته"[22]، ومعنى هذا أنَّ الاستعارة – بوصفها فنّاً بلاغيّاً – تساعد على إحداث استجابات خلاقة لدى المتلقي نتيجة للخصائص التي تتميّز بها، ومن هذه الخصائص: الإيحاء، والملاءمة، والابتكار والجدّة، والتّشخيص، ثم علاقة الصّورة الاستعاريّة بالخيال[23]، وهي خصائص تجعل قوة الحِجاج في الألفاظ تبدو في الاستخدام الاستعاريّ أقوى ممّا نحسّه ونشعر به عند استخدام المتكلِّم للفظة نفسها بمعناها الحقيقي.

المبحث الثاني: الوظيفة الحِجاجيّة للاستعارة في الخطاب القرآنيّ:

إنَّ النّاظر في الخطاب القرآني يجده مليئاً بصنوف الاستعارات، وهذا ما يضفي عليه جمالاً يترك أثراً في النّفس والعقل، فالاستعارة في القرآن الكريم تؤدّي دوراً حِجاجيّاً مهمّاً، حيث يلجأ إليها الخطاب القرآنيّ عندما يريد إقناع المتلقّي بأمرٍ ما، وينتظر منه أن يتّخذ موقفاً موافقاً أو مناهضاً له، وخاصة فيما يتعلّق بقضايا الإيمان بالله وحده، أو ما يتعلّق بعقاب الأقوام السّابقة، وما ينتظر المنكرين لرسالات الله من العذاب

(17) عبد الرحمن، طه: اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العرب، الدار البيضاء، ط1، 1998م، ص310.

(18) لوقرن، ميشال: الاستعارة والحجاج، ترجمة: طاهر عزيز، مجلة المناظرة، العدد 4، 1991م، ص89.

(19) انظر، عبد المطلب، محمد: البلاغة العربية قراءة أخرى، مكتبة لبنان، (د.ط)، (د.ت)، ص 171.

(20) الجرجاني، عبد القاهر: أسرار البلاغة، تحقيق: عبد الحميد الهنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2001م، ص 279.

(21) انظر، الدريدي، سامية: الحِجاج في الشّعر العربيّ القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة "بنيته وأساليبه"، جدارا للكتاب العالمي، عمان، ط1، 2008م، ص120.

(22) العسكري، أبو هلال: كتاب الصناعتين " الكتابة والشعر"، تحقيق: علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، 1952م، ص51.

(23) انظر، أبو العدوس، يوسف: الاستعارة في النقد الأدبي الحديث، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 1997م، ص223.

يوم القيامة، فتأتي الاستعارة بما تملكه من قوّةٍ وقدرةٍ كبيرةٍ على استمالة القلوب والعقول؛ لإقناع المتلقّي باتخاذ موقفٍ حازمٍ تجاه ما يُعرض عليه في كتاب الله من قضايا عميقة تحاكي وجدان الإنسان تجاه خالقه العظيم.

وقد اقتصر الأقدمون عندما تحدّثوا عن الاستعارة في القرآن الكريم على ذكر أنواعها، من استعارةٍ تصريحيّةٍ ومكنيّةٍ، واستعارة محسوسٍ لمعقول، أو معقولٍ لمعقول وما إلى ذلك، حيث عملوا على ذكر هذه الألوان والتّمثيل عليها بما ورد منها في القرآن الكريم، ووقفوا عند ذلك فحسب، وربما زاد بعضهم على ذلك قليلاً، فأجرى الاستعارة مكتفياً بهذا القدر في بيان الجمال الفنّي الّذي يضفيه هذا الأسلوب البلاغيّ على النّص القرآنيّ.

ولهذا سنتناول في هذا البحث بعض نماذج الاستعارة في الخطاب القرآنيّ، ونبيّن سبب اختيار هذه الألفاظ المستعارة، وإيثارها على الألفاظ الحقيقيّة، دون أن نلجأ إلى التّقسيمات المتعدّدة للاستعارة، لأنّه ليس من مقاصد هذا البحث الحديث عن أقسامها في الخطاب القرآنيّ، وإنما غرضه الكشف عن الطاقة الحِجاجيّة لهذا الفن البلاغيّ، وكيف استطاع النّصّ القرآنيّ من خلاله أن يقيم الحجّة على المتلقّي، ويجعله يتبنّى موقفاً حازماً تجاه القضيّة المعروضة عليه، ولهذا تمّ تقسيم هذه الاستعارات حسب الموضوعات الآتية:

أولاً – دلائل قدرة الله تعالى: القرآن الكريم هو كتاب الله المعجز الّذي أنزله على عباده ليخرجهم من الظّلمات إلى النّور، وكثيراً ما يذكر الخالق – جلّ وعلا – آياتٍ دالّةً على قدرته وعظمته، واستحقاقه للعبوديّة والوحدانيّة، فنراه يمتنُّ على خلقه بآياته العظام ويوظّف الاستعارة لبيان قدرته، ومثال ذلك قوله تعالى:﴿ **وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ**﴾ [24]، ففي هذه الآية الكريمة علامةٌ دالةٌ على قدرة الله وعظيم صنعه في هذا الكون، حيث يظهر من خلالها قدرته العظيمة على خلق اللّيل والنّهار هذا بظلامه وهذا بضيائه، وجعلهما يتعاقبان يجيء هذا فيذهب هذا، والتّعبير القرآنيّ عن هذه الظّاهرة تعبيرٌ فريدٌ يصوّر لنا هذه الحقيقة الكونية أدقَّ تصويرٍ[25]، فهو يصوّر النهار مُتلبِّساً بالليل، ثم ينزع الله النهار من الليل، ولهذا استعار النّصّ القرآنيّ الفعل "نسلخ" من عملية سلخ جلد الذبيح من الحيوان بعد ذبحه، وهذا أمرٌ مُدرَكٌ بالحسّ الظاهر؛ للدلالة به على عملية إزالة ضوء النهار شيئاً فشيئاً عن مواطن ظهوره على الأرض في حركات متتابعة، وهذا أمرٌ مُدرَكٌ بالحسّ الظاهر أيضًا، فحركة ذهاب النهار وظهور الليل بالتدرّج تشبه حركة سلخ الجلد شيئًا فشيئًا عن الحيوان المذبوح، فاستعير هذا لهذا بفنية دقيقة جدًا[26] لتقريبه للأفهام والأذهان، وبيان قدرة الله سبحانه وتعالى.

ومثلها قوله تعالى:﴿**وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ**﴾ [27]، أيّ امتدّ حتّى يصير نهاراً بيّناً، ونجد أنّ النّصّ القرآنيّ عبّر عن امتداد الصّبح بأسلوبٍ بلاغيٍّ جميل، يليق بكتاب الله المعجز، الّذي حاجج الله فيه قريش، واستطاع بلغته وفصاحته إقامة الحجّة عليهم، فقد جاءت الاستعارة في هذه الآية الكريمة لتبيّن قدرة الله سبحانه وتعالى في ظهور الصبح، "فالصبح حيٌّ يتنفّس، أنفاسه النّور والحياة والحركة الّتي تدبّ في كلّ حيٍّ"[28]، ولإقناع المتلقي وتقريب الصورة إلى ذهنه شبّه المولى – عزَّ وجلَّ – الإشراق بالتنفس، فحذف المشبّه (الإشراق) وذكر المشبّه به (التنفس) على سبيل الاستعارة التصريحية، فالمستعار والمستعار له كلاهما محسوس، وفي هذا دلالةٌ على قدرة الخالق – عزَّ وجلَّ – وبديع خلقه، إذ إنَّ

(24) سورة يس، الآية 37.

(25) انظر، قطب، سيد: في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة، ط10، 1981م،2968/5.

(26) انظر، الميداني، عبد الرحمن حسن حبنّكة: البلاغة العربية أُسُسُها وعلُومها وفنُونها، دار القلم، دمشق، ط3، 2010م، 258/2.

(27) سورة التكوير، الآية 18.

(28) قطب، سيد: في ظلال القرآن، 3842/6.

ظهور الصبح يحمل بشرى للأنفس بحياةٍ جديدةٍ في يوم جديد، للسّعي في الأرض، وعبادة الخالق وحده، فالنَّفس عند الكائنات مبشّرٌ لحياةٍ تبدأ بخروجه من الصّدر، وكذلك الصباح ما هو إلّا إيذانٌ من الله بحياة تبدأ بخروج أول شعاع للشّمس.

ومن الاستعارات الدّالة على قدرة الله تعالى ما جاء في قوله:﴿**حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ**﴾[29]، فلا شيء أجمل من تصوير الله تعالى للأرض بعد نزول المطر، وكيف أنّها تتفتّح وتكتسي بأفخر الحُلل وأبهى الثّياب، فالاستعارة هنا جاءت لتقوية المعنى وتقريبه للمخيّلة، فعندما استعار الخطاب القرآني الفعل (**ازّيّنت**) وهو فعل محسوس تختصّ به العروس التي تتزيّن لتظهرَ بأجمل الحُلل وأبهاها[30]، صوّر لعقل المتلقّي الهيئة الّتي ستظهر عليها الأرض بعد نزول المطر، وكيف أنّها تتزخرف بأبهى الألوان والأزهار والثّمار، فكان لهذه الكلمة وقع الجمل في قوّتها وإبداع تركيبها وجزالتها، وفيها دلالةٌ على عظمة الخالق الّذي يحيي الأرض بعد موتها بقطرات ماء تنزل من سمائه، فيعتبر بها أصحاب العقول.

وتتوالى الاستعارات الدّالة على قدرة الخالق كقوله تعالى:﴿**وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا**﴾[31]، فمن مظاهر قدرة الله مخالفته بين اللّيل والنّهار ليسكنَ النّاس في اللّيل، ويتوصّلوا ببياض النّهار إلى استبانة أعمالهم والتصرّف في معايشهم[32]، فاللّيل والنّهار فيهما دلائل على قدرة الله وإثبات لوحدانيته، وقد أراد الخالق أن يعبّر عن طبيعة النّهار – وهو مخلوقٌ من مخلوقاته – الذي أوجده ليساعدَ البشر على قضاء حوائجهم، ولهذا جعله مُضيئاً، واستعار للدّلالة على ذلك كلمة (مُبصرة) أي مبصراً فيها بالضّوء، وهي صفة تُطلق على العين الّتي ترى كلّ ما حولها، فأراد الخالق أن يعبّر عن النّهار المضيء الّذي نبصر به الأشياء بوضوح وجلاء، وبعين ثاقبة بعيداً عن انعدام الرؤيا، وبهذه الاستعارة استطاع الخطاب القرآنيّ أن يختزل المعاني العظيمة بكلمةٍ واحدةٍ، وأن يقيم الحجّة على المشككين بقدرته ووحدانيته، وأنّه مستحقّ للعبادة، فما اللّيل والنّهار إلّا آيات لا يمكن أن تكون دون وجود خالق لها.

ويطول بنا الحديث إذا ما أردنا تتبّع هذه النوع من الاستعارات الدّالة على قدرة الخالق عزَّ وجلَّ؛ ولهذا نختمها بقوله تعالى:﴿**هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ۖ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ**﴾[33]، فقد استطاع الخالق – جلّ وعلا – من خلال أسلوب الاستعارة أن يقيم الحجّة على المنكرين لقدرته ووحدانيّته، وذلك من خلال ما بثّه في هذه الأرض من مظاهر دالّة على قدرته، حيث جعلها هينةً صالحةً للسّير فيها بحثاً عن أرزاقهم[34]، ونلاحظ أنَّ الخطاب القرآني شبّه لنا الأرض بالحيوان المذلَّل، فذكر المشبّه (الأرض)، وحذف المشبّه به (الحيوان)، وترك شيئاً من لوازمه وهي (المناكب) على سبيل الاستعارة المكنية التخييلية[35] التي عملت على تقوية المعنى، وتقديمه بطريقة مؤثّرةٍ موحيةٍ تترك أثراً في نفس المتلقي.

(29) سورة يونس، الآية 24.

(30) انظر، الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر(ت538هـ): الكشّاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق: عبدالرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت،ط2، 2001م،325/2.

(31) سورة الإسراء، الآية 12.

(32) انظر، الزمخشري: الكشّاف، 610/2.

(33) سورة الملك، الآية 15.

(34) انظر، ابن عاشور، محمد الطاهر: تفسير التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور، مؤسسة التاريخ، بيروت، (د.ط)، 2000م،30/29.

(35) انظر، عبّاس، فضل: البلاغة فنونها وأفنانها (علم البيان والبديع)، دار النّفائس للنّشر والتّوزيع، الأردن، ط 12، 2009م، ص215.

وهكذا نلاحظ أنَّ الخطاب القرآنيّ وظّف الاستعارة بوصفها أسلوباً بلاغيّاً وأداةً حِجاجية في بيان عظيم صنع الخالق في هذا الكون، فهي تنقل للمتلقي المعاني المعقولة وتجعلها ماثلةً أمامه، مما يدفعه إلى الاقتناع بها.

ثانياً– عاقبة الأقوام السّابقة: وظّف الخطاب القرآنيّ الاستعارة في حديثه عن عاقبة الأقوام السّابقة، ومثال ذلك ما جاء في قوله تعالى:﴿**إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ**﴾[36]، إنَّ إدراك حِجاجيّة الاستعارة في هذه الآية الكريمة تتضح لنا بعد إدراك المقام الذي جاءت فيه، أي لماذا قِيلت تلك الاستعارة؟ وكيف حصل الإقناع والحِجاج من خلالها؟ فهذه الآية وردت في سياق الحديث عن الطوفان الذي حصل زمن نوح عليه السَّلام، وقد تضمّنت استعارةً جميلةً دقيقةً، حيث شبَّه الخالق ارتفاع الماء وخروجه عن حدِّ الاعتدال بالطغيان، فحذف المشبّه (الارتفاع)، وذكر المشبّه به (الطغيان) على سبيل الاستعارة التصريحية، ولكن ألم يكن الاكتفاء باللفظ الحقيقي دالاً على هذه الوظيفة الحِجاجيَّة؟

إنَّ اللفظ الحقيقي(الارتفاع) لا يخلو من توجيه المتلقي إلى النتيجة والوظيفة الحِجاجيّة للخطاب القرآنيّ المتمثّلة بنجاة المؤمنين من الغرق والعذاب الكبير الذي ألحقه الله بالقوم الكافرين، إلا أنَّ اللفظ الاستعاري (الطغيان) أقوى منه حِجاجاً وأبلغ؛ لأنَّ الارتفاع قد يُلحق الضّرر وقد لا يُلحقه، في حين أنَّ الطغيان يلحق الضّرر دائماً ولا يحمل دلالةً إيجابيةً، فهو صفة للإنسان تعني تكبّره وخروجه عن حدّ الاعتدال في تعامله مع النّاس[37]، ولهذا فإنَّ في هذه الاستعارة قوّةً في المعنى، لا تتأتّى إلّا بها، من تصوير عذاب هؤلاء القوم الّذين تجبّروا وطغوا، حتّى ابتلاهم الله بطغيان أعظم وأعتى من طغيانهم.

وقريب من هذه الاستعارة ما جاء في سورة الكهف في قوله تبارك وتعالى:﴿**وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا**﴾[38]، فهذه الآية ترسم حركة الجموع البشريّة من كلِّ لونٍ وجنسٍ وأرضٍ عندما يختلطون ويضطربون في غير نظام خلف سدِّ يأجوج ومأجوج، وقد استعار الخطاب القرآنيّ لفظة (يموج) من حركة أمواج البحر التي يختلط فيها الماء بعضُه ببعض، للدّلالة بها على حركة هذه الجموع واضطرابها في أحداثٍ متجدِّدة متكرِّرة كتكرّر حركة أمواج البحر[39]، ونلاحظ أنَّ لفظة (يموج) تختلف عن المنظومة الدّلاليّة لهذه الآية الكريمة، ذلك أنَّ الألفاظ الأخرى التي تتشكّل منها الآية الكريمة يناسبها كلمة(يضطرب أو يتفرّق) بدليل وجود مقابلها (الجمع)، غير أنَّ الخطاب القرآنيّ عدل عن اللفظ المباشر إلى لفظٍ أبلغ وأقوى في تأدية المعنى المراد، فاستعار لفظة (يموج) لأنَّها لا تقف عند معنى الاضطراب فحسب، بل تنقل لنا صورة البحر كاملة، وتُسقطها على هذه الجموع من النّاس يوم انفتاح السَّدِّ، حيث نجد ذلك الجمع الغفير، وقد احتشد مضطرباً خائفاً، لا يعرف ماذا يفعل، إلا أنّه فقط يرقب ما سيحصل له، قبل قيام السّاعة والنّفخ في الصّور، ونجد أنّ معنى الاضطراب والخوف والحيرة، لا يأتي تامّاً موحياً إلّا باستعارة لفظة (يموج) تلك الّتي تصور لنا كلَّ هذه الأحوال، بالبحر الهائج المائج، حيث تستحضر هذه اللّفظة صورةً كاملةً لا تتأتّى إلّا بهذا الأسلوب البلاغي الذي ينبّه العصاة الطّغاة إلى ما ينتظرهم، يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون، فعقاب الله آتٍ لا محالة.

(36) سورة الحاقة، الآية 11.

(37)انظر، ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، 115/29.

(38) سورة الكهف، الآية 99.

(39)انظر، قطب، سيد: في ظلال القرآن، 2295/4.

ووظّف الخطاب القرآنيّ الاستعارة في بيان عاقبة قوم عاد في قوله تعالى: ﴿**وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (41) مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ**﴾[40]، فقد جاء في بعض التّفاسير أنّ الله تعالى عندما أراد أن يهلك قوم عاد، أمر خازن الرّيح أن يرسل ريحاً تهلكهم، وتشتّت أمرهم، "وسمّيت الرّيح الّتي أُرسلت على عاد عقيماً؛ لأنّها لم تكن تحمل ماءً ولا حياةً كما توقّعوا، إنّما تحمل الموت والدّمار، وتترك كلَّ شيءٍ تأتي عليه كالميّت الّذي رمَّ وتحوّل إلى فتات"[41]، وقد عبّر السّياق القرآنيّ عن هذا العذاب بأسلوبٍ بلاغيٍّ مؤثّر، حيث أراد أن يصف لنا ما وقع لهؤلاء القوم الطغاة الّذين كذّبوا رسولهم، وعصوا الله وأنكروا كلَّ ما جاء من الحقّ، فوصف هذه الرّيح بالعقيم، لأنّها لا خير فيها من إنشاء مطرٍ أو إلقاح شجرٍ، ولا رحمة فيها ولا بركة ولا منفعة[42]، ولهذا استعار لفظة (عقيم) التي تحمل معنى الإجداب والقفر، فالعقم صفةٌ للمرأة التي لا تلد، لكن الخطاب القرآنيّ استدعاها هنا ليعبّر عن المعقول المعنويّ بصورةٍ حسيّةٍ ملموسةٍ، تقرّب المعنى المراد للمتلقي، وتجعله ماثلاً أمامه، إذا ينتقل المتلقي من الملفوظ الاستعاريّ إلى النّتيجة الكامنة في لفظة (العقم) وما تحمله إلى النّفس من معنى الإجداب الذي تتسم به هذه الرّيح، وبذلك أدّت الاستعارة وظيفتها الحجاجيّة والإقناعيّة، لأنّها دلّت على أنَّ الله – سبحانه وتعالى – لن يترك الكافرين دون عذابٍ وعقابٍ، مما يدفع المتلقي إلى أخذ العبرة من مصير هؤلاء الأقوام، فيلتزم بأوامر الله ولا يخالفها.

وتأتي الاستعارة مرّةً أخرى في سياق الحديث عن عاقبة قوم عاد في قوله تعالى: ﴿**وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (6) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ**﴾[43]، حيث يشبّه الله تعالى في هذه الآية الكريمة الرّيح التي أُهلك بها قوم عاد في خروجها عن حدّها وعُتوّها، بالإنسان الظّالم الّذي تجاوز كلّ الحدود، فالرّيح الصّرصر هي الشّديدة الباردة، واللّفظ ذاته فيه صرصرة الرّيح، وزاد شدّتها بوصفها "عاتية"؛ لتناسب عُتوّ عاد وجبروتها المحكي في القرآن[44]، وقد استعار لفظة (عاتية) ليصفَ بها شدّة هذه الرّيح، فشُبّهت الشّدّة بالعتوّ على سبيل الاستعارة التّصريحيّة التي وهبت للجماد صفةً من صفات الإنسان، وفي هذا زيادة في تصوير المعنى وتثبيته في الأذهان، وجعله صورة حيّة متحرّكة، تعبّر عن قوّة هذه الرّيح الّتي جاءت على كلّ شيء فدمّرته.

وتظهر الوظيفة الحِجاجيّة للاستعارة – أيضاً – في قوله تعالى:﴿**فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (13) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ**﴾[45]، حيث يبيّن الله سبحانه وتعالى لسيدنا محمّد – صلّى الله عليه وسلّم – عاقبة أقوى الجبارين من الأقوام السّابقة كقوم عادٍ وثمود وفرعون الذين طغوا في البلاد وأكثروا فيها الفساد، لذلك أنزل الله عليهم شتّى أنواع العذاب، وحتّى يبيّن لنا شدة هذا العذاب استعار لفظةً ترعب القلب وتهزّ النّفس، وهي لفظة (صبَّ) الدّالة على كثرة العذاب الّذي أنزله الله على هؤلاء القوم وتتابعه، فضلاً عن استعارة لفظة (السّوط) التي توحي بلذع العذاب وشدّته "حيث يجتمع الألم اللّاذع والغمرة الطّاغية على الطّغاة"[46]، فالكثرة يلائمها الصّبّ، وشدّة العذاب وتنوّعه يلائمها السّوط، وهكذا تحقّقت وظيفة الاستعارة الحِجاجيّة بعد أن أوصلت الرّسالة المطلوبة للمتلقي، وهي أنَّ من يسير على نهج هؤلاء الأقوام يواجه مصيرهم ويصبَّ الله عليه العذاب كما صبَّه عليهم.

---

(40) سورة الذاريات، الآية 41-42.

(41) قطب، سيد: في ظلال القرآن، 3384/6.

(42) انظر، الزمخشري: الكشّاف، 406/4.

(43) سورة الحاقة، الآية 6-7.

(44) انظر، قطب، سيد: في ظلال القرآن، 3678/6، وابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، 108/29.

(45) سورة الفجر، الآية 13-14.

(46) انظر، قطب، سيد: في ظلال القرآن، 3904/6.

ويستمر الخطاب القرآنيّ في توظيف الاستعارة في حديثه عن عاقبة الأقوام السّابقة، كقوله تعالى:﴿**وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ**﴾[47]، يصوّر الله – سبحانه وتعالى – في هذه الآية الكريمة حال مكّة وقومها المشركين الذين جحدوا نعمة الله عليهم بعد أن كانوا آمنين مطمئنين، فما كانت عاقبة كفرهم إلا أنّ أُصيبت هذه القرية بأيام قحطٍ وجوعٍ وخوفٍ، وقد وظّف الخطاب القرآنيّ الاستعارة بأسلوبٍ دقيقٍ ليعبّرَ عن شدّة العذاب وشموله، حيث استعار لفظة (اللباس) للدّلالة على أثر الجوع والخوف وضررهما الذي شمل أهل القرية كما يشمل الثّوب صاحبه[48]، وهكذا انزاح الخطاب القرآنيّ عن الدّلالة الحقيقية للفظة (اللباس)إلى الدّلالة المجازيّة، والقرينة المانعة من إرادة الدّلالة الحقيقيّة هي إضافة اللباس إلى الجوع، وليس هذا فحسب، بل استعار الخطاب القرآنيّ لفظة (الإذاقة) للدّلالة على شدّة الابتلاء، ولهذا انزاحت هذه اللفظة – أيضاً – عن دلالتها الحقيقيّة وهي الإحساس بأحوال الطعام، لتؤديَ دلالةً مجازيّةً وهي شدّة إصابة القوم وابتلاؤهم بآلام الجوع، ولكن السّؤال الذي يتبادر لذهن المتلقي هنا، هو لماذا جاء النّظم القرآنيّ على هذا النحو؟ لماذا أُوثر لفظ (لباس) على لفظ (طعم)،فقال: لباس الجوع، ولم يقل: طعم الجوع؟ ولماذا أُوثر لفظ (الإذاقة) على لفظ (الكسوة)، فقال: أذاقها الله لباس الجوع، ولم يقل: كساها الله لباس الجوع ؟

إنَّ السّر البلاغيّ الكامن وراء هذا الانزياح والعدول في هذين اللفظين يؤكّد حِجاجيّة الاستعارة في هذا السّياق الذي اقتضى التعبير عن أمرين، هما: شدّة الإصابة، وشمولها وإحاطتها، فهؤلاء القوم كانوا آمنين مطمئنين يأتيهم رزقهم من كلّ مكان، ولكنهم كفروا بأنعم الله – عزّ وجلّ – فاستحقوا شدّة الإصابة وشمولها، ولهذا آثر النّظم القرآنيّ لفظ (الإذاقة) على لفظ (الكسوة)؛لأنَّ الإذاقة تستلزم الإدراك بحاستين: الذّوق واللمس، والكسوة تستلزم الإدراك بحاسة اللمس فقط، فكان التعبير بالإذاقة هنا أدلُّ وأبلغ[49]، كما أنَّه آثر لفظ (لباس) على لفظ (طعم) ليفيد الإحاطة والشمول، إذ إنَّ الإحاطة التي في الطعم تكون في جزء من أجزاء الجسم، أما إحاطة اللباس فهي شاملة للجسم كلِّه[50]، وهكذا نلاحظ أنَّ توظيف الاستعارة في هذه الآية له مسوغاته الحِجاجيّة التي تُقنع المتلقي بأنَّ هؤلاء القوم استحقوا هذا العذاب الشديد بسبب كفرهم بأنعم الله.

ثالثاً– الصّراع بين الحقّ والباطل:

من المعلوم أنَّ الصّراع بين الحقّ والباطل صراعٌ أزليٌّ بدأ منذ أن خلق الله الأرض ومن عليها، وسيبقى حتّى قيام السّاعة؛ لذلك كَثُرت الآيات الكريمة الّتي تناولت هذه القضيّة بوصفها قضيّةً رئيسةً، لما فيها من صراعٍ دائمٍ بين معسكري الخير والشّر، والهدى والضّلال، والنّور والظّلام، ولهذا كان لا بدّ من أن يوظّف الخطاب القرآنيّ أكثر الأساليب البلاغيّة تشويقاً، وإغراقاً في الحُجَّة؛ ليوقفَ أهل الباطل ويقيم عليهم البراهين، ليرجعوا عن غيّهم وضلالهم، ويحذّر من سيأتي بعدهم من العناد والمكابرة، فأسلوب القرآن ذو بعد حِجاجيٍّ ناشئٍ عن طريقةٍ له في القول مخصوصة، فضلاً عن نشوئه من مضامين هذا القول[51]، ولهذا وُظِّفت الاستعارة لإقامة الحُجّة في الصّراع بين معسكر الحقّ، ومعسكر

(47) سورة النحل، الآية 112.

(48) انظر، ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، 247/13.

(49) انظر، قطب، سيد: في ظلال القرآن، 2199/4.

(50) انظر، عبّاس، فضل: البلاغة فنونها وأفنانها (علم البيان والبديع)، ص 253، والخرشة، أحمد: أسلوبيّة الانزياح في النّصّ القرآنيّ، الأكاديميون للنشر والتوزيع، عمّان، ط1، 2014م، ص 90-91.

(51) انظر، صولة، عبدالله: الحِجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبيَّة، دار الفارابي، بيروت، ط1، 2001م، ص52-53.

الباطل كما في قوله تعالى:﴿**بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ**﴾[52]، فالقذفُ في اللغة: رميُ شيءٍ ملموسٍ كحجرٍ ونحوه إلى جهةٍ ما، وقد استُعير في هذه الآية الفعل (نقذف) للدّلالة به على توجيه الحق الفكريّ وتوجيه أدلته، للإقناع بها أو للإلزام أو للإفحام ضد الباطل الفكريّ الذي يُؤمن به المبطلون، والدّمغُ في اللغة: هو الشجُّ في الرّأس الذي يكسر الجمجمة ويصل إلى الدماغ فيُخرجه، وقد استُعير في هذه الآية الفعل (يدمغ) للدّلالة به على إبطال الباطل ببرهان الحقّ، ففي هذه الآية – كما تلاحظ – استعارتان تصريحيتان في كلٍّ منهما استعارة مُدْرَكٍ بالحسّ الظّاهر للدلالة به على مُدْرَكٍ فكريّ[53]، وفي هذا ردٌّ واضحٌ على المشركين الذين يتقوّلون على القرآن الكريم ويصفونه بالسّحر والشّعر والافتراء، وفيه – أيضاً – دليلٌ قاطعٌ على أنَّ الحقَّ أصيلٌ في طبيعة الكون، عميقٌ في تكوين الوجود[54]، فتوظيف الاستعارة هنا والعدول عن اللغة المباشرة رسم صورةً حسيّةً متحركةً أسهمت في التأثير في المتلقي وإقناعه بغلبة الحقّ وزهوق الباطل.

ومن آيات صراع الحق والباطل القائمة على الاستعارة قوله تعالى:﴿ **الر ۚ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ**﴾[55]، تتحدّث هذه الآية الكريمة عن معجزة الإسلام الخالدة – القرآن الكريم – الّتي نزلت لهداية النّاس وإخراجهم ممّا هم فيه من ظلمات الغيّ والضّلال، إلى أنوار الهدى والإيمان؛ وفي لفظتي (الظّلمات والنّور) استعارتان للضّلال والهدى[56]، فالكفر بمنزلة الظّلمة لأنَّه يجعل صاحبه في ضلال، والإيمان بمنزلة النّور لأنَّه يرشد صاحبه إلى الحقّ والصّواب، والظّلمات والنّور كلاهما مستعار وهما محسوسان، والكفر والإيمان كلاهما مستعار له وهما معقولان، ومما لا شك فيه أنَّ استعارة المحسوس للمعقول في سياق هذا الخطاب القرآنيّ تتيح للمتلقي تذكّر الطّرف الغائب(المشبّه/الكفر والإيمان)، أو بعبارة أخرى أنَّ الحاضر(المشبّه به/ الظّلمات والنّور) يتخلّص من دلالته الوضعيّة الأحاديّة؛ ليستوعبَ دلالةً ثنائيةً تجمع بين الحاضر والغائب(المشبّه والمشبّه به) على صعيدٍ واحدٍ لتكتمل عملية الاتصال بالمتلقي[57]، وتترك في نفسه أثراً كبيراً ما كان ليحدث لولا هذه الاستعارة اللطيفة التي أدّت دورها القوي في إقامة الحُجَّة على الكافرين وبيان دور القرآن الكريم في إخراجهم ونقلهم من ظلمات الكفر والوهم إلى نور الهداية.

ولا تنتهي المعركة بين الإيمان والكفر، وبين الحق والباطل، ولهذا ترد الإشارة إليها في القرآن الكريم في أكثر من موضع، كقوله تعالى:﴿**أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾[58]، ففي هذه الآية الكريمة تشبيهٌ للمؤمن الذي هداه الله بعد الضلالة بمن كان ميتاً فأحياه الله وجعل له نوراً يمشي به بين النّاس[59]، فقد استعار الخطاب القرآنيّ لفظة (الموت) للدّلالة على الضلال، وجاء بمقابلها أي بلفظة (الحياة) للدّلالة على الهداية إلى طريق الحقّ؛ تعبيراً عن فضل الإيمان وتمييزاً له عن الكفر والضّلال، ولم يكتفِ الخطاب القرآنيّ في هذه الآية بهاتين الاستعارتين، بل جاءت كلمتا (النّور والظّلمات) على سبيل الاستعارة – أيضاً– فالنّور الذي جعله الله للإنسان هو الإيمان، والظّلمات التي لا يخرج منها الكافر هي الشرك

(52) سورة الأنبياء، الآية 18.

(53) الميداني، عبد الرحمن حسن حبنّكة: البلاغة العربية أُسُسُها وعلُومها وفنُونها، 259/2-260.

(54) انظر، قطب، سيد: في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة، ط10، 1981م،2372/4.

(55) سورة إبراهيم، الآية 1.

(56) انظر، الزمخشري: الكشّاف، 505/2.

(57) انظر، عبد المطلب، محمد: البلاغة العربية قراءة أخرى، ص170.

(58) سورة الأنعام، الآية 122.

(59) انظر، الزمخشري: الكشّاف، 59/2.

والكفر[60]، واختيار هاتين اللفظتين له مسوّغاته ودلالاته العميقة التي تروم تصوير المعنى بطريقة مُعبِّرة تلفت انتباه المتلقي وتجعله يقف عاجزاً أمام هذه الصورة، ذلك أنَّ الإيمان والكفر أمران مجردان لا يدركان بالحسِّ، فلمّا استعار لهما الخطاب القرآنيّ النّور والظّلمات خرج من المجرَّد إلى ما يُدرك بالحواس، فأصبحت المعنويات والأمور العقلية ماثلة أمام العين، وهذا أقوى في الحجة وأبلغ في التأثير في المتلقي[61].

وهكذا نلاحظ أنَّ الاستعارة فنٌّ بلاغيٌّ يُثير انفعالات المتلقي النّفسيّة، ويحرّك أفكاره، بطريقةٍ لا يمكن للغة المباشرة النّهوض بها، ومن هنا تمَّ توظيفها في الخطاب القرآنيّ لغايةٍ حِجاجيَّةٍ؛ لأنَّها تعدُّ من وسائل التَّأثير والاستمالة ودفع المتلقي إلى إعلان موقفه من الموضوعات الرّئيسة السّابقة التي عالجها الخطاب القرآنيّ.

الخاتمة:

وبعد، فقد خلص هذا البحث إلى أنَّ نظرية الحِجاج التي تعدُّ من أبرز نظريات النّقد الحديث موجودة في تراثنا البلاغيّ القديم، ولهذا فإنّها تمثّل نقطةً من نقاط الالتقاء بين النّقد الحديث والبلاغة العربيّة القديمة، وقد اعتمدها الخطاب القرآنيّ واتخذ منها ركيزةً في تقديم الطروحات التي تدعو المتلقي إلى التدبّر الموضوعي القائم على مخاطبة العقل ودعوته إلى التفكير؛ بغية الوصول إلى قناعةٍ عقليّةٍ لا تقبل الشك، فهو – أي الخطاب القرآنيّ – يمثِّل قوّةً في التّعبير تدفع المخاطَب إلى التّفكر والتّأمّل من أجل الوصول إلى إقرار حقيقةٍ معيّنة.

وقد اتَّضح – من خلال النّماذج المدروسة– أنَّ الاستعارة تقوم بدورٍ كبيرٍ في هذا الخطاب الحِجاجيّ، فهي ليست إضافةً لا قيمة لها، بل هي جزءٌ من نسيج التّعبير القرآنيّ المعجز، تقوّي دلالته وتعمل على تعميقها في نفس المتلقّي المعرِض، وتدفعه إلى تغيير قناعاته في موضوعات مختلفة، أبرزها: دلائل قدرة الله تعالى، وعاقبة الأقوام السّابقة، والصّراع بين الحق والباطل.

وفي الختام يوصي الباحث الدّارسين بإعادة النظر في الفنون البلاغيّة المختلفة كالتشبيه، والمجاز، والاستعارة، والكناية، والأساليب الإنشائيّة، ... وغيرها، وبحث علاقتها ودورها بحجاجيّة الخطاب في القرآن الكريم، والأحاديث النّبويّة الشّريفة، والشِّعر العربيّ.

(60) ابن عاشور، محمد الطاهر: تفسير التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور، مؤسسة التاريخ، بيروت، (د.ط)، 2000م، 7/33-34.

(61) انظر، الخرشة، أحمد: أسلوبيّة الانزياح في النص القرآني، ص92.

المصادر والمراجع:

- **القرآن الكريم.**

1. ابن الأثير ، أبو الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم: **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، (د.ط)، 1420هـ.
2. بروتون وجوتييه، فيليب وجيل: **تاريخ نظريات الحجاج**، ترجمة: محمد صالح الغامدي، مركز النشر العلمي، جامعة الملك عبد العزيز– المملكة العربية السعودية،(د.ط)،2011م.
3. الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناني: **البيان والتبيين**، دار ومكتبة الهلال، بيروت.
4. الجرجاني، عبد القاهر: **أسرار البلاغة**، تحقيق: عبد الحميد الهنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2001م.
5. الحباشة، صابر: **لسانيات الخطاب (الأسلوب والتلفظ والتداولية)**، دار الحوار للنشر، اللاذقية/ سوريا، ط1، 2010م.
6. الخرشة، أحمد: **أسلوبيّة الانزياح في النّصّ القرآنيّ**، الأكاديميون للنشر والتوزيع، عمّان، ط1، 2014م.
7. الدريدي، سامية: **الحِجاج في الشّعر العربيّ القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة "بنيته وأساليبه"**، جدارا للكتاب العالمي، عمان، ط1، 2008م.
8. الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر(ت538هـ): **الكشّاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، تحقيق: عبدالرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت،ط2، 2001م.
9. الشهري، عبد الهادي بن ظافر: **استراتيجيات الخطاب (مقاربة لغوية تداولية)**، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط1، 2004م.
10. صولة، عبدالله: **الحِجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبيَّة**، دار الفارابي، بيروت، ط1، 2001م.
11. صولة، عبد الله: **في نظرية الحجاج (دراسات وتطبيقات)**، مسكيلياني للنشر والتوزيع، تونس، ط1، 2011م.
12. الطلبة، محمد سالم الأمين: **الحجاج في البلاغة المعاصرة**، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط1، 2009م.
13. عادل، عبد اللطيف: **بلاغة الإقناع في المناظرة**، دار الأمان، الرباط/ منشورات ضفاف– بيروت/ منشورات الاختلاف– الجزائر،ط1، 2013م.
14. ابن عاشور، محمد الطاهر: **تفسير التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور**، مؤسسة التاريخ، بيروت، (د.ط)، 2000م.
15. عبّاس، فضل: **البلاغة فنونها وأفنانها (علم البيان والبديع)**، دار النّفائس للنّشر والتّوزيع، الأردن، ط 12، 2009 م.
16. عبد الرحمن، طه: **في أصول الحوار وتجديد علم الكلام**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط2، 2000م.
17. عبد الرحمن، طه: **اللسان والميزان أو التكوثر العقلي**، المركز الثقافي العرب، الدار البيضاء، ط1، 1998م.
18. عبد المطلب، محمد: **البلاغة العربية قراءة أخرى**، مكتبة لبنان، (د.ط)، (د.ت).
19. أبو العدوس، يوسف: **الاستعارة في النقد الأدبي الحديث**، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 1997م.
20. العزاوي، أبو بكر: **اللغة والحجاج**، العمدة في الطبع، الدار البيضاء، (د.ط)، 2006م.

21. العسكري، أبو هلال: **كتاب الصناعتين "الكتابة والشعر"**، تحقيق: علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، 1952م.

22. العمري، محمد: **بلاغة الخطاب الإقناعي**، دار إفريقيا الشرق، المغرب، (د.ط)، 2002م.

23. القرطاجني، أبو الحسن حازم بن محمد بن حازم: **منهاج البلغاء وسراج الأدباء**، تحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، الدار العربية للكتاب، تونس، ط3، 2008م.

24. قطب، سيد: **في ظلال القرآن**، دار الشروق، القاهرة، ط10، 1981م.

25. لوقرن، ميشال: **الاستعارة والحجاج**، ترجمة: طاهر عزيز، مجلة المناظرة، العدد 4، 1991م.

26. ابن منظور، جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي الإفريقي: **لسان العرب**، دار صادر، بيروت، ط3، 1414هـ.

27. الميداني، عبد الرحمن حسن حبنّكة: **البلاغة العربية أُسُسُها وعلُومها وفنُونها**، دار القلم، دمشق، ط3، 2010م.